دراسات

الإنسانية بين رعب الكورونا.. وعطالة القراءات "المُخلِّصة"

عبد الحق الزموري

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020
جميع الحقوق محفوظة © 2020

الإنسانية بين رعب الكورونا.. وعطالة القراءات "المُخلِّـصة"

عبد الحق الزموري

مدير مؤسسة أبعاد للدراسات المستقبلية/ أسبانيا

مقدمة

تعيش البشرية تحت وطأة "حرب" فرضها عليها كائن غريب منذ شهر ديسمبر 2019، عدوٌ لا تعرف له جنودًا ولا تشكيلات ولا آليات ولا استراتيجيات .. لا تعرف له وجها ولا صوتًا .. تُحسّ بوجوده "الغادر" و "المدمّر" فقط عندما يتمكن منك .. دون تمييز أو فرز أو ترتيب بين البشر. شبّهه مرّة إدغار موران بالبوليس السري للنازية (الغستابو): "لا تراه أبدا .. تحتاط منه غايةً .. وفجأة يتمكن منك فتختفي إلى الأبد".

هو ليس بالجسم الحي، مجهري الحجم، فاقد الوجود إلى حين تلبّس خلية في جسم الإنسان ... فيوجد. وجوده رسمٌ بتحوله، وبإظهار قوته التدميرية الخارقة، وباختصاره للزمن، بل وبقدرته الفائقة على التطور النوعي إضافة إلى التكاثر الكمي.

ورغم أن البشرية رسمت لهذا "العدو" سيناريوهات متعددة منذ سنوات، إلا أنها وجدت نفسها شبه عاجزة عن احتوائه والتصدي له بعد أكثر من ثلاثة أشهر من إعلانه التحدي.

تنقسم ورقتنا هذه إلى قسمين، نحاول في الأول رسم سؤال الجائحة: كيف ولماذا؟ وفي الثاني نجيب عن عالم ما بعد الكورونا، بأي معنى، وأي بديل كوني.

الصدمة: تراكم المعارف و"تفاهة" الممارسة

كثيرة هي الكتب الاستشرافية التي صدرت منذ عدة سنوات محاولة رسم بعض مآلات ما وصل إليه الإنسان من تطور صناعي وتقني في التحكم، ولكن أغلبية ساحقة من أولئك الذين تنبؤوا بانهيار النظام العالمي الحالي بنوا تحليلاتهم على المُخرجات المادية للحضارة المعاصرة وأثرها على تفكك المجتمعات. ورغم دقة بعض تلك المحاكمات الاستشرافية لما يمكن أن تعيشه البشرية في مواجهة الكوارث وكثافة تفاصيلها، إلا أن جائحة كوفيد 19 (فيروس كورونا الجديد) كشف وجها مختلفا تماما لعجز الإنسان أمام أزمة صحية، تبدو "تافهة" في بدايتها، عصفتْ بأغلب (أو كلّ) "مُنجزات" العوْلَمَة.

لا شك أن لحظة الكوارث والأزمات الكبرى تُعتبرُ قوة دفع فارقة في تطور المعرفة، وتُفرزُ سجلات جديدة من البراديغمات والمفاهيم والمصطلحات، كما يذهب إلى ذلك

"توماس كون" في كتابه "بنية الثورات العلمية".[1] ولا شك أيضا أن جائحة الكورونا وتداعياتها الضخمة على كافّة مناشط الإنسان جعل منها لحظة تحول نوعي في التطور البشري، وبالتالي سيستدعي مراجعات جوهرية في التعريفات والأدوار والممارسات والرؤى إلى المستقبل، وما يتطلبه من إعادة رسم الشبكات الأفقية والعمودية في إدارة الكون.

****

زاد الجدل العلمي والأكاديمي والثقافي العام في الأسابيع الأخيرة حول تفكيك جائحة الكورونا وفهم الأسباب التي جعلت الإنسان الكوني "عاجزا" عن التصدي لها، ومحاولة استشراف مستقبل البشرية بعد انجلاء الوباء.

تتوزع تلك التفسيرات والسيناريوهات وتتنوع، وقد لخّصت المجلة الأمريكية "فورين بوليسي" عددا منها في الملف الذي استطلعت فيه آراء 12 مفكرا كبيرا من مختلف أرجاء الأرض حول مستقبل العالم بعد الجائحة.[2] ولكن المقاربات (جميعها) كانت متمحورة بالأساس حول التحولات السياسية والاقتصادية والعلاقات الدولية وما يتبعها من تشكل المجتمعات والدول.

نفس الصورة نجدها لدى المصري محمد عبد الله يونس الذي يؤكد إن المصطلحات الأكثر شيوعا خلال هذه الأزمة هي: سياسات الأوبئة / ارتداد العولمة / سياسات الانعزال / تصاعد الأمننة / مجتمع المخاطر العالمي / الثقة السياسية / قومية الكورونا / إقتصادات الكورونا / رأسمالية الكورونا.[3]

كما نجد نفس التركيز على تلك الأبعاد الاقتصادية والجيو-استراتيجية في قراءة الجائحة واستشراف ما بعدها في الدراسة الطويلة التي نشرها د. محمد الشرقاوي تحت عنوان "التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية".[4]

***

تواترت وتباينت المقاربات – المواقف حول الجائحة، وقدم بعضهم قراءات كلّية تقترح نظاما تحليليًا تُرجع إليه أسبابها وتفسر به مسارها وتقترح طبقًا له "طرائق للخلاص" الفردي والجماعي؛

هناك من نظر إلى الجائحة من زاوية "الحدث العادي" رغم استثنائيته، ولم ير فيه أي

---

[1] توماس س. كون؛ بنية الثورات العلمية. تر. حيدر حاج إسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007. أنظر على سبيل المثال قوله ص 206 "فالعلماء الذين يقودهم براديغم جديد يتبنون أدوات جديدة وينظرون في أمكنة جديدة"

[2] How the World Will Look After the Coronavirus Pandemic ; The pandemic will change the world forever. We asked 12 leading global thinkers for their predictions. Foreign Policy Magazine; March 20, 2020, https://foreignpolicy.com/2020/03/20/world-order-after-coroanvirus-pandemic/

[3] د. محمد عبد الله يونس؛ كيف ترسم المفاهيم المتداولة ملامح عالم ما بعد الكورونا. المستقبل للدراسات والأبحاث المتقدمة، أبو ظبي، سلسلة دراسات خاصة، ع 2، 29 مارس 2020

[4] د. محمد الشرقاوي؛ "التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية". الدوحة، مركز الجزيرة للدراسات، 30 مارس 2020.

"أمل" في تغيير جذري في مسار العالم. كتب د. عزالدين عبد المولى مدير الدراسات في مركز الجزيرة للبحوث يوم 24 مارس على صفحته في الفايسبوك تدوينة بعنوان: "لن يغيّر كورونا العالم كما يتمنى البعض أو يتوهم" مؤكدا أنْ " سيكون عالم ما بعد كورونا كما كان قبلها".[5] طبعا لا يتفرد الدكتور عبد المولى بهذا الرأي، بل نجد عديد المراقبين والمحللين غربا وشرقا يصدرون عن هكذا مقاربة، ولعل من بينهم عالم المستقبليات المعروف د. وليد عبد الحي الذي يؤكد وقوفه على النقيض تماما من الرأي القائل إن كورونا ستقصم ظهر العولمة، رغم أنه يؤكد في مقالته أنه يفرّق "بين ظاهرة العولمة كعملية إجرائية (*Process*) وبين المنظور المعياري لها (*Normative*)"، وأن موقفه الذي يبني عليه تحليله يخص الوجه الأول للعولمة، يقول: "ما أريد التركيز عليه هو سؤال محدد: هل سيسير المجتمع الدولي نحو تمزيق خيوط عنكبوت العولمة ... أنا أقول لا مع الإقرار بان عملية النسج ليست ذات طابع خطي".[6] بل إن الفيلسوف الفرنسي آلان باديو ما فتئ يُصرّ على أن الوباء الكوني الحالي، كغيره من الجوائح السابقة، لا يطرح شيئا استثنائيا جديدا، ويذهب إلى حد القول "إن الدرس المستفاد من كل هذا واضح: إن الوباء الحالي، مثل أي وباء، لن يكون له عواقب سياسية كبيرة، على الأقل في بلد مثل فرنسا".[7]

لا أعتقد إن هذا الرأي يصدر عن استخفاف بحجم الكارثة الوبائية، بل لعله يرى في تعقد الشبكات التي نسجتها النيوليبرالية في مرحلة تطورها الرابعة، وصلابة أدوات هيمنتها على العقول وعلى الموارد المادية قدرة على تكييف مخلفات الكورونا والاستفادة من الأوضاع الجديدة التي ستفرضها، كما ختم عبد الحي مقالته، "والمؤشرات التي أشرت لها سابقا ستكون استراتيجيتها القادمة هي لا وقف العولمة بل " تنظيمها أكثر" والتنبه لأبعاد جديدة بغض النظر عن التقييم المعياري لها، فالعنكبوت باق، والنسج مستمر وبطرق جديدة وقديمة، وقد تُحدِث الصدمة بعض الارتداد لمدة عامين أو أكثر ثم تعود حليمة لعادتها القديمة".

هناك أيضا مقاربات ترتكز إلى ما يُعرَفُ بـ"نظرية المؤامرة"، والتي تزدهر سردياتها في الأزمات الكبيرة، وتنتعش أذرعها (نظريات نهاية العالم؛ التفسيرات الدينية القُصووية؛ سرديات أفلام الخيال العلمي المرتبطة بفناء الحضارة الإنسانية الحالية ...الخ). يستوي في ذلك الإنجليزي دفيد أيك الشهير،[8] والتيارات القائلة بأن "الهلع المُعَوْلَم يُدار بشكل مُصطَنَع"، يلعب فيه الإعلام المُتَـحَـكَّمِ به كونيا دورا رئيسيا، ويعتمدُ على افتعال الصدمة، فتحويلها إلى

---

[5] مع الإشارة إلى أنه عدّل من موقفه ذاك لاحقا. أنظر مقاله في موقع مركز الجزيرة بعنوان " ما القوة الحيوية؟ كورونا واختبار المفهوم التقليدي لقوة الدولة" مستعملا في عنونة إحدى فقراته عبارة "خلاصات لعصر ما بعد كورونا"، مؤكدا على تغيّر بوصلة النظر للعلاقات الاجتماعية والسياسية.
https://studies.aljazeera.net/ar/article/4623?fbclid=IwAR3gXSIJFOMerM1pYwmeN0l2a6qdfmmIw3hxVQIlINF5FEvd90EY7-xVPEA

[6] وليد عبد الحي؛ "العولمة بين الكورونا والواقع الدولي". 28 مارس 2020
https://www.rawafidpost.com/archives/5012

[7] Alain Badiou ; sur la situation épidémique. Tracts de crise, Gallimard, n° 20, 27 mars 2020

[8] أنظر على سبيل المثال آخر مقابلة معه حول جائحة الكورونا يوم 18 مارس 2020 في:
https://www.youtube.com/watch?v=_9bHgivxXfw

أزمة، ثم إدارتها.[9]

ويستوي في ذلك أيضا القائلون بتورط إحدى الدولتين (الصين وأمريكا) في نشر الفيروس لأهداف جغرا – سياسية في علاقة بالصراع الكوني، وكذا بعض المتدينين (من كل الديانات السماوية وغير السماوية) الذين يقرؤون الجائحة في ضوء غضب الله على سكان الأرض بسبب ابتعادهم عن التعاليم.[10]

ولكن تبقى المقاربات الأكثر انتشارا هي تلك التي تبني تفكيرها في عالم "الما – بعد" على تفكيك المستوى الذي وصلته العوْلَمة ونتائجها المتمثلة بالأساس في "جبروت النيو ليبرالية" وانحرافات جشع المال التدميرية للإنسان وللأرض. يتفق هؤلاء في التوصيف (مع اختلافات جزئية حول مسؤولية الأسباب)، ويتفقون في القول بضرورة التغيير (هل هو حتمي أم إرادي؟)، ولكنهم يختلفون في الاستشراف، وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

- الأول، وهو الغالب الأعمّ، يختار البقاء ضمن مَرْوَحَة واسعة في نفس الصندوق الكبير. نجد من بين هؤلاء المناهض منذ سنوات لما وصل إليه النظام الرأسمالي، وهو يرى أن الجائحة ستقصم ظهر العَوْلَمة، مثل الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه الذي يذهب في واحد من حواراته الأخيرة إلى وصف ما يقع اليوم بـــ: "الزلزال الفكري والأيديولوجي [الذي تخلفه الكورونا]، وهو زلزال فارق. لقد ماتت العولمة الليبرالية، أي أن المبدأ الذي تقوم "التجارة السائلة" على أساسه بتعديل جميع المشاكل لم يعد صالحا... نحن في حاجة إلى خوارزمية سياسية جديدة." ولكن هذه النتيجة التي توصل إليها لا تُخفي حذره من مسار هو بصدد التشكل؛ إذ رغم وصفه للجائحة بأنها "شرنوبيل صحي"، إلا أنه يعتقد "إننا في مسار يقظة ... نحن نعيش اختبارا سياسيا حقيقيا على نطاق واسع"، وهو يقصد بالتحديد النظام الديموقراطي الغربي الذي يتمسك به كسلاح في الحرب ضد الجائحة،[11] وهي نفس مقاربة عديد الخبراء والمفكرين الغربيين مثل جون ايكنبيري أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة برينستون.

وإذا كان البعض يعتبر أن ما يجري يمكن أن يكون "القشة التي ستقصم ظهر البعير، لا سيما على مستوى العولمة الاقتصادية" (مدير مركز "تشاتام هاوس" للأبحاث بلندن، روبين نيبليت مثالا)، فإن بعضهم الآخر يرى الحل في تغيير مركز تلك العولمة إلى الشرق (كيشور مهبوباني عميد كلية لي كوان يو للسياسة العامة التابعة لجامعة سنغافورة الوطنية على سبيل المثال).[12] وقد لخّص أحد الباحثين[13] طروحات هذا التيار الواسع في رؤية ما بعد

---

[9] أنظر على سبيل المثال واحدا من الفيديوهات العديدة جدا المنتشرة في الشبكة العنكبوتية:
https://www.youtube.com/watch?v=1w_jVdktlWI&feature=youtu.be&fbclid=IwAR2G-NWDlOIT79YTHzEscJB5hdkTEl-rCil1nnOwxGjOxq9jROqxkb_YlxE

[10] إقبال الغربي؛ التفسير العقابي لوباء الكورونا. موقع تعددية، الثلاثاء 31 مارس 2020.
https://taadudiya.com/التفسير-العقابي-لوباء-الكورونا/?fbclid=IwAR3CNgHFLHN-x2AIWVN-iPR_nRBNnhWeyiafmliSH18lKmEHVu7xj5W-j6A

[11] Marcel Gauchet : “C’est un réveil du politique”. Propos recueillis par Martin Legros; Philosophie Magazine, Mis en ligne le 17/03/2020
https://www.philomag.com/lactu/marcel-gauchet-cest-un-reveil-du-politique-42738

[12] Foreign Policy Magazine ; *Idem*

الكورونا، في أكثر المطالب تداولا في العالم التي ترسم ملامح المرحلة القادمة، وهي: إعادة هندسة النظام الدولي / صدارة الدولة القومية / مراجعة جدوى التكامل الإقليمي / تصاعد الجدل حول نهاية العولمة / تحديد مصير الشعبوية / اتجاهات المحاسبة السياسية / الاهتمام المتزايد بالعلم والمعرفة / مراجعة نظم الرعاية الصحية.

- التيار الثاني هو ذاك الذي يركز في تحليله لمآلات الجائحة على البعد المعياري للعولمة، متراوحا بين الدعوة إلى ضرورة قيام "بنية ديمقراطية أخلاقية ودولة أخلاقية كصيغة مناهضة لأطروحة النيوليبرالية وتفريعاتها الأنيقة بمسمَّى الرأسمالية الأخلاقية"،[14] وبين من يعتبر أن "النموذج الأسواقي" الذي حولت العولمة الرأسمالية الإنسان طبقا له إلى سلعة، قد "دخل مرحلة من السيولة والعدمية لا يمكن الإمساك فيها بشيء"، ويعتبر الوباء فرصة لإعادة بناء حياتنا حول الإنسان حريةً وكرامةً واستخلافا. ولكنه لا يجد من أفق عملي لذلك التغيير في المعنى سوى الرهان "على الدولة الوطنية في تلاحمها وانسجامها، وفي استثمار كل إمكاناتها، وفي تأهيل كل قطاعاتها، وفي تفاعل كل مكوناتها، من أجل إسعاد إنسانها واسعافه عند الضرورة".[15]

نحن لم نغادر الصندوق. ولكن هل المطلوب مغادرته أصلا؟

يذهب أحد الدبلوماسيين التونسيين السابقين إلى أن "قلب الأولويات بخصوص احترام الحياة البشرية لا بد أن يكون في أساس السياسات العمومية"،[16] أي أن يُعاد التفكير في "المعنى" الذي أسبغته الأنظمة المعيارية النيو ليبرالية للعولمة، وكذلك للـ"مبنى" الذي انتظمت داخله نشاطات الأفراد والدول. فـ "الفيروس يفكِّر خارج الثنائيَّات الفكريَّة البشريَّة. والفيروس يُميتُ فيما وراء الخير والشرّ البشريَّين. وملامح الزّمن ما – بعد – كورونا هي على نحوٍ مزدوج: الموت العاري وانهيار الأفكار" كما يقول د. سالم العيادي.[17]

---

[13] محمد عبد الله يونس؛ نفسه

[14] الشرقاوي؛ نفسه

[15] الدكتور سعيد شبار؛ "كورونا، واستعادة مفهوم الإنسان والقيم الإنسانية". موقع مركز أفكار للدراسات والأبحاث، 28 مارس 2020.
https://afkaar.center/2020/03/28/كرونا،-واستعادة-مفهوم-الإنسان-والقيم
/?fbclid=IwAR3We1CEVCCZptAvwSW6j33Sxy7y5AM9APb4E5gtoJX22C-7Cc5oh0u022I

[16] Hédi ben Abbes ; Peut-on espérer un avant et un après Corona ? Business News, 19/03/2020,
https://www.businessnews.com.tn/peut-on-esperer-un-avant-et-un-apres-corona,526,96355,3?fbclid=
IwAR2HTyBrLBtlDyxhLqv2tHz48GEzZiXUEjgi5dyYjB3ajafDYOM2rZwJFMY

[17] سالم العيادي؛ الموت العاري وانهيار الأفكار: تأمُّلات في "ما- بعد -كورونا ". موقع نيوز برس، 31 مارس 2020.
https://newspresse.tn/2020/03/31/-الموت-العاري-وانهيار-الأفكار-
تأمُّلا/?fbclid=IwAR0VdhUttF16GYuFZe1Co1VLfDcvxZUuuuwNRruNIvDGQIfBnqDLbFc4U7w

"بعوضة النمرود" .. تأملات معيارية

عرفت البشرية الأوبئة والجوائح منذ آلاف السنين،[18] وكان أشهرها جائحة الطاعون الأسود منتصف القرن الرابع عشر[19] والأنفلونزا الاسبانية 1918 – 1920 التي أصابت حوالي 500 مليون شخص في العالم، وحصدت (حسب الدراسات الحديثة) ما بين 50 و 100 مليون في قارات مختلفة.[20]

وبقطع النظر عن التفسيرات المتباينة حول أصل الفيروس وموطن منشأه وعوامل انتشاره وتداعياته المرتقبة على الحضارة الحالية،[21] فإن جائحة كوفيد 19 وضعت الإنسان أمام مرآة الأسئلة الوجودية الأصلية التي طالما تكفّلت "الحداثة" بكل مُخرجاتها بمهمة الإجابة عنها في مكانه: لماذا يحيا؟ لماذا يموت؟

أسقطت الجائحة بشكل واسع وسريع كل الوساطات بين الإنسان ومعناه، وعاد سؤال المعنى يؤرق البشرية بشكل لا تراتبي، بشكل متساوٍ. أعتقد إن هذا هو أول درس، وأعظمه، تحدّى به أدقّ جسم في عالمنا (كورونا) أعظم كائن فيه (الإنسان-الإله). تبدأ "سيولة" المعنى عندنا من المصطلح الذي أطلق على الوضع الوبائي الحالي في اللغة العربية؛ فقد وقع التواضع (أمميا) على إطلاق لفظة *pandémie* على هذا الوباء، وعرّبوها إلى "الجائحة". يعود أصل الكلمة "في اليونانية القديمة إلى *pān* (كل) و *dêmos* (الشعب)، وتعني الوباء المنتشر في منطقة جغرافية واسعة من العالم، يصاب به جزء كبير من سكانه. وتظهر الأوبئة عند حصول اختلال فارق في التوازن، ناتج عن تغيّرات اجتماعية وبيئية في مرحلة من مراحل التاريخ".[22] بُنيَ التركيب المصطلحي اللاتيني هنا إذا على حجم الإصابة، وليس على سببها أو أثرها أو شكلها؛ "جميع الناس".. يصبح الوباء (*épidémie*) جائحة (*pandémie*) عندما يصيب عددا معينا من البشر، أي يستحيل المرض القاتل إلى مجرّد رقم كبير.

أما الجائحة (من الجَوْح) فهي في "لسان العرب"[23] تدور على معاني الاستئصال والمصيبة والهلاك والشدّة. وقد استُعملت في شعر منسوب إلى هُناءة بن مالك بن فهم

---

[18] فطاعون أثينا الذي ظهر في الفترة من 430 إلى 426 قبل الميلاد ذهب بربع سكانها، ولم تُعرف أسبابه إلا عام 2006، عندما حلل باحثون من جامعة أثينا سن متعافٍ من مقبرة جماعية موجودة تحت المدينة، واستطاعوا معرفة البكتيريا المسببة لحمى التيفوئيد.

[19] نشرت نتائج الحفريات التي نفذها فريق من الأركيولوجيين الأنجليز في سميثفيلد الشرقية وبالتحديد في مقبرة أنشئت بشكل طارئ في لندن لدفن موتى الطاعون الأسود، في كتاب جماعي صدر عام 2008، بعنوان:
Lynne Cowal, Ian Grainger, Ducan Hawkins, Richard Mikulski, (ed). The black death cemetery, East Smithfield. London, Museum of London Archaeology Service, Monograph 43, Museum of London, London, UK, 2008. 64 pp

[20] الإنفلونزا الإسبانية؛ ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
https://ar.wikipedia.org/wiki/الإنفلونزا_الإسبانية

[21] يعتقد الدكتور طلال أبو غزالة أن الجائحة ليست أكثر من مقدمة لحرب عالمية ثالثة مؤكدة (وضرورية) سيكون طرفاها الرئيسيان الولايات المتحدة الأمريكية والصين، وستنتهي بالاتفاق على قيام نظام عالمي جديد برأسين أو برؤوس متعددة. أنظر المقابلة التلفزيونية مع قناة سكاي نيوز في برنامج مواجهة يوم الخميس 2 أفريل 2020
https://www.youtube.com/watch?v=QvpdrSomLT4

[22] https://fr.wikipedia.org/wiki/Pandémie

[23] ابن منظور (تـ 711 هـ)؛ لسان العرب. بيروت: دار صادر / ط 3، 1414 هـ. ج 2 ص 430

الأزدي عام 231 م يرثي أباه بمعنى "المصيبة تستأصل المال ونحوه":

حلّتْ على مالِكِ الأملاكِ جائحةٌ *** هدّتْ بناءَ العُلا والمَجْدِ فانْـفَصَدا

كما استُعمِلتْ في سياق فتك الدهر بالرجال (عام 600 م):

وأباد إفريقيسَ بعد مَقامِهِ *** في المُلْكِ بالمُستَغرِقِ المُـجتاح

(شعر قس بن ساعدة).[24]

لا يحضر الموت إلا عرَضًا في معاني الجائحة في اللغة العربية، وكان التركيز على الكسْب أكثر منه على الإنسان، لذلك يُقال للجراد جائحٌ لأنه يُهلك الحرث والزرع والثمر؛ وقد "روى الأزهري عن الشافعي قال: جِماعُ الجوائح كل ما أذهبَ الثمر أو بعضها من أمر سماوي بغير جناية آدمي".[25] (!!!)

الحقول الدلالية لمصطلح الجائحة عند العرب غلَبَتْ عليها معاني بعيدة عن موت الإنسان، وتصيب ما حوله بشكل مباشر. وقد تواصلت تلك المعاني في القواميس العربية إلى حدود القرن 18 م. ففي "أجوبة" القاضي عظوم على سبيل المثال (كان حيا عام 1604 م) نجده استعمل المصطلح 48 مرة، وقصَرَهُ على ما يصيب الغلّة بإجمال، يقول في الجزء العاشر على سبيل المثال: "وقولي: والدود جائحة الخ، الجواب في الشامل: والجائحة ما لا يمكن دفعه من سماوي وكَريحٍ سماوي فقط لا سارق على المشهور، وقيل والسارق، وقيل إن لم يعرف وإلا تبعه المشتري مَليًّا وغيره وما اتصل بها من جَرَادٍ أو نار أو سموم أو بَرَدٍ أو غرقٍ أو مطرٍ أو طيرٍ غالب أو دودٍ أو عفَن أو سقوطٍ كَريحٍ قبل كمال طيبها ففيه الجائحة على المشهور. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق".[26]

ولكننا نجد إشارة لطيفة في "لسان العرب" لمعنى فرعي يذهب منحى آخر في تعريف الجائحة: "يقول ابن الإعرابي (...) وجاحَ يجوحُ عَدَل عن المَحجّة إلى غيرها"، أي أن الانحراف عن الطريق السويّ مسبّب للاجتياح والهلاك. وقد نجد عند العرب تعبيرات أخرى لوصف حالة الموت الجماعي بسبب قاهر، لعل أحدَها الفناء. وقد جاء في شعر عمرو بن قميئة البكري (في حدود 539 م) قوله:[27]

قد كان من غسّانَ قَبْلَكَ أمْـــــــــلاكٌ ومنْ نَصْرٍ ذَوُو نِعَمِ

فتتوَّجوا مُلْكًا لهُمْ هِمَـــــمٌ ففَنُوا فَناءَ أوائـل الأُمـم

والطاعون عند العرب اسمٌ لكُلِّ وَباءٍ عامٍّ يَنتَشِرُ بِسُرعةٍ. ولكن المعاني الحديثة التي ضُمّنت لمصطلح الجائحة ربطا له بالإنسان وإضافة عدد المصابين وعدد الوفيات كعناصر

---

[24] معجم الدوحة التاريخي للغة العربية. مادة "جوح" https://www.dohadictionary.org/dictionary

[25] نفسه

[26] أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عظوم المرادي؛ كتاب الأجوبة. تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة. تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2004. 11 جزءا.

[27] معجم الدوحة التاريخي للغة العربية. مادة (ف ن ي) https://www.dohadictionary.org/root/ فني

أساسية للتعريف فهي مأخوذة عن المعجمية اللاتينية الحديثة.[28]

يذهب بعض علماء الاجتماع المعاصرين إلى توصيف ما نعيشه اليوم جرّاء أزمة كورونا بـ"مجتمعات الجائحة"؛ ويسعى منير السعيداني (أستاذ علم الاجتماع بالجامعة التونسية) إلى تعريف المفهوم الذي يشتغل عليه معتبرا أن المجتمع "تلبّس" الجائحة ليصبح جزءا منها (كنمط حركة)، فالفيروس "يفرض تغييرا جذريا في كيفيّات عقد الصلة الاجتماعية وطُرق التصرُّف، ومنطق تدبير اليومي وُصولا إلى آثار اقتصادية وسياسية وأخلاقية لما تزل تُخومها غير قابلةٍ للحصر... ذلك أُننا نعيش، منذ عُقود، الانتشار الجائح للعديد من مظاهر الحياة ومن الظواهر والممارسات والمشاعر والانفعالات".[29]

التعريف والمَفْهَمة جزء من رؤية للوجود، وخلفية في رسم معالم تشكيلاته وحدوده. وهو مدخل مهم – في مسألة الحال – لتحديد الأرضية التي نقف عليها بإزاء الجائحة (تعليلا وتفكيكا) والتفكير فيما يليها (أو ما نسميه الما بعد).

أعتقد (وغيري كثير) إن السبب الأول والرئيسي للجائحة يعود إلى اختلال فارق في علاقة الإنسان بالطبيعة، وإلى انهيار كلّي لمصفوفة القيم الهادية التي تعطي لرؤيته للعالم معنى (بقطع النظر عن تفاصيل ظهور فيروس كوفيد 19 وانتشاره). جعل الإنسان مدار حركته، مع نهاية الألفية الثانية، وبشكل كامل، الربح والتأله مع ما استتبع تطبيقاته من ظُلم وعدوان، ونزع تدريجي لأَخْلَقَة حركة الإنسان وكسبه. أصبح الهم الأوحد مع النيو ليبرالية مزيدا من التحكّم واستبعادا ممنهجا للإيطيقا. وكانت النتيجة أن يجد الإنسان (الأعزل) نفسه اليوم مجرد رقم في إحصائيات ضحايا الفيروس في مقابل حقيقة الموت العارية...وما يسبقها من رعب من مصير محتوم لم يتهيأ له.

كان المركز في القرن الماضي هو رجل الاقتصاد وخبير المال والأعمال، عليه تدور رحى التنمية والاجتماع والسياسة، ويسعى البعض اليوم، في قلب حدث الجائحة، إلى تغيير المركز إلى رجال الصحة وعلماء المخابر، وذاك برأيي كسراب بقيعة. لن نغادر المربع الأول. وستعود حليمة إلى عادتها القديمة: جشعا وظلما وانحرافا، كما ذهب إلى ذلك د. عبد المولى.

الرأي عندي أن نفكر في إعادة الانتظام برمّته حول الأخلاق والإيطيقا، فهي قلب الدائرة، التي تعطي المعنى للأشياء، وتحسن التوجيه في السياسة كما في الصناعة، في التربية كما في الرياضة، في الزراعة كما في النفس....الخ.

كما علينا أن نفكر في "مجتمع الفسيلة" القائم على مصفوفةٍ سنامُها قيمتا الأمانة والكرامة. علنا نتجاوز المحنة، ونبني لغد أفضل للبشرية ... بها وإليها.

---

[28] https://ar.wikipedia.org/wiki/جائحة

[29] منير السعيداني؛ مجتمع الجائحة.
https://www.academia.edu/42452283/مجتمع_الجائحة?fbclid=IwAR1n4DU6FiadGKOr0kr4E56nbl-yApkJHE9TORSedWxoiPfp2J9JFzLlN3A

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail.com

twitter.com/AfkaarCenter

facebook.com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020